المحاضرة رقم6: العلاقات الجزائرية التونسية في عهد الأسرة الحسينية

اتفق أهل الحل والعقد–(الديوان) بتونس على تنصيب حسين بن علي آغا على تونس في 15جويلية 1705م، وبهذا التنصيب أصبح الحكم من ذلك الوقت حكما وراثيا، وجعل من قصر الباردو مقرا رسميا لحكومة الايالة، وقد تعرضت تونس خلال حكم الأسرة الحسينية الى الكثير من الاضطرابات الداخلية والخارجية وخاصة منها التدخل الجزائري في قلب نظام الحكم لصالح احد أبناء هذه الأسرة مما جعل بايات تونس رهائن لحكام الجزائر.

أرسل ديوان تونس رسالة الى الداي مصطفى المرابط بمنطقة الكاف حملها وفد ممثلا في: سيدي علي عزوز ورئيس الفتوى ابوالحسن علي الصوفي والشيخ ابوالعباس احمد الرصاع، حيث تضمنت الرسالة ودور الوفد على مايلي :

- إقناع الداي مصطفى بإصدار أمر جلاء القوات الجزائرية من منطقة الكاف، وأن أي محاولة لمتدخل في الشأن التونسي سوف تؤدي لا محالة بهلاك الطرفين .
- في حال رجوع القوات الجزائرية ودخوليا الى التراب التونسي فان ذلك يعتبر اعتداء وانتياك حرمة المال والنفس.
- بينما كان رد الداي مصطفى بأن دخول الجيش الجزائري للتراب التونسي إنما لغرض إعادة فرض السلم والطمأنينة .

لم يقتنع الداي مصطفى بمضمون الرسالة ومقترحات الوفد فبادر بالهجوم على تونس مرة أخرى في 28اوت1705م وخيم بمكان يدعى منجوس ودارت معارك عديدة دامت قرابة شهر ، نال التعب من الجيش الجزائري وحلت به الهزيمة فدعى زعيم قبيلة الحنانشة الداي للتراجع فثار عليه الجند وخلع من الحكم وعين خلفا له الداي حسن خوجة 1705–1707 وعلى اثر ذلك وافق الداي الجديد على وقف الحرب مع تونس وجلا القوات الجزائرية كلها من منطقة الكاف وتقديم تعويضات مقابل خسائر الحرب .

وقد شهدت الفترة الممتدة ما بين 1705–1728سنوات سلم بالرغم مما تخللته من مناوشات فقد وقع تعاون عسكري بين تونس والجزائر من أجل إخضاع القبائل المتمردة وبخاصة قبيلة الحنانشة عام 1724 حينما رفض شيخ قبيمة الحنانشة بوعزيز بن ناصر دفع ما عليه من ضرائب سنوية لباي قسنطينة حسين بوكمية 1736–1713م ، وقد عرف عن هذه القبيلة عدم الاستقرار في ولائها سواء لايالة تونس أو لايالة الجزائر وكثيرا ما تعلن التمرد بل تشجع بقية القبائل على ذلك ضد السلطة في كلا الايالتين، ويمكن إرجاع أسباب السلم بين االايالتين إلى :

_ انشغال الجزائر بتحرير وهران .

_ كثرة الاغتيالات التي تعرض لها دايات الجزائر .
_ تعدد ثورات الانكشارية المطالبة برفع الرواتب .
- كثرة الزلازل والاوبئة والقحط .

لما رفع حسين بن علي الى سدة الحكم بتونس جعل ولاية العهد في ابن أخيه علي باشا وحينما ازدان لو ولد منح ولاية العهد لابنه محمد الرشيد وأقصى بذلك ابن أخيه وكرد فعل من هذا الاخير قام بحركة تمرد وانقلاب ضد عمه حسين بن علي وتحصن لدى قبيلة جبل وسلات وهناك حاصرته القوات التونسية مما أجبر إلى الانسحاب نحو الحدود الجزائرية وطلب العون والمساعدة من بعض القبائل الحدودية، ولما بلغ الامر إلى الباي الحسين بن علي راسل داي الجزائر كور عبدي 1724-1732م وطلب منه توقيف ابن أخيه (علي باشا) وسجنه مقابل تعهد باي تونس بدفع كل سنة مبلغا ماليا قدره خمسون ألف بياستر (عملة فضية) فقبل داي الجزائر العرض .

ان هذه الاحداث هناك ما يؤكدها صحتها مثلما جاء احد في رسالة احد القناصلة في رسالته الى فرنسا بتاريخ 17 اكتوبر 1727م ، بأن منذ فرار علي باشا انتشر الامان والسكينة في مملكة تونس .

ويبدو أن باي تونس حسين بن علي لم يلتزم بدفع ما عليه من ضريبة وأصبح لا يهاب داي الجزائر خاصة أن الوضع في الجزائر يمر بظروف صعبة بعد استعادة الاسبان لمدينة وهران عام 1732وشغور الخزينة المالية ، انتهز علي باشا التونسي هذه الظروف واستطاع اقناع باي قسنطينة حسين بوكمية للتوسط له لدى الداي ابراهيم خوجة (1723-1745) من اجل مساعدته في السيطرة على الحكم في تونس .

فلما بلغ هذا الامر الى علم ديوان تونس ارسل هذا الاخير وفدا بقيادة عمر المورالي من اجل اقناع الداي بالتراجع عن مهاجمة تونس ولكنه فشل في مسعاه فحاول باي تونس حسين بن علي الاستنجاد بالسلطان العثماني محمود الاول (1730-1754) حتى يقنع داي الجزائر بالتراجع ووقف العدوان على تونس فأرسل السلطان مندوبا عنه الى الجزائر ولكنه اعتقل واغتيل بقسنطينة حتى لا يفسد مشروع الهجوم وهذا دون علم الداي ابراهيم خوجة بالامر .

اندفعت القوات الجزائرية نحو الشرق بقيادة كل من باي قسنطينة حسين بوكمية وعلي باشا وتحالفت معهم قبائل الحنانشة والنمامشة وايضا قبيلة عمار وقبيلة بوعزيز المعارضتين لباي تونس حسين ابن علي وكان ذلك في ماي 1735. التقى الجيشان بالقرب من واد مليانة بمنطقة سمنجة حقق فيها الجيش الجزائري انتصار كبيرا بعد ما تخلت القبائل التونسية عن دعم حسين بن علي الذي تراجع الى القيروان وقتل هناك عام1740م وفر ابناؤه (محمد وعلي) الى الجزائر،

بينما دلمت القوات الجزائرية مدينة تونس وأجلست علي باشا على العرش الحسيني عنوة في سبتمبر 1735م ، ونال اعتراف السلطان العثماني به بايا بان ارسل له فرمانا .

وقد تعهد الباي التونسي الجديد علي باشا للجزائر(اتفاقية سمنجة) بما يلي :

- دفع ضريبة سنوية 50 الف بياستر .
- تعود وتحمل غنائم النصر لصالح الجيش الجزائري(35 صندوقا من النقود الفضية).
- تقديم هدايا ثمينة لكل من داي الجزائر ، باي قسنطينة وابراهيم الخزندار قائد الجيش .
- يلتزم باي تونس علي باشا بدفع كميات من القمح كلما احتاجت الجزائر لذلك.

وقد ساد الهدوء العام في تونس برغم بعض محاولات ابناء حسين بن علي على استرداد الحكم دون نتيجة ، ودائما ما يكون ذلك بايعاز من السلطة في الجزائر كورقة ضغط على الحكم التونسي.

ومن دلائل عودة الهدوء والاستقرار والطمأنينة بين الجزائر وتونس انه في عام 1741م هاجم علي باشا قبيلة الحنانشة (لعشاش) الذين اعتدوا على قافلة الحج القادمة من المغرب على الحدود الجزائرية التونسية وبالرغم من ذلك لم يحرك باي قسنطينة ساكنا على هذا الاعتداء لانه يدرك ان هذه القبيلة لا تعترف بالاستقرار والتبعية والولاء لاحدى الايالتين وكثيرة التمرد. اضافة الى ذلك ان باي تونس تبرع بمبالغ مالية كبيرة كمساعدة منه لتجديد الاسطول الجزائري كما بعث ايضا بمجموعة من المهندسين المتخصصين في مجال بناء السفن، واصبحت السفن الجزائرية والتونسية تجوب المياه الاقليمية للبلدين بكل حرية ودون الحصول على رخص من الجانبين والقيام بحملات تأديبية مشتركة ضد بعض القبائل الحدودية التي تمارس عمليات التهريب للمواد الغذائية ورؤوس المواشي وغيرها.

وفي الجزائر، وبعد وفاة الداي ابراهيم كوشوك عام 1748م خلفه الداي محمد بن بكير (1748-1754) هذا الاخير عرف عنه انه كان محبا للسلم متسامحا مع باي تونس إلى أقصى الحدود مما يصدر من الاخير من استفزازات وتصرفات لا مسؤولة .

ولما انتقلت السلطة في الجزائر الى الداي علي بوصبع 1754-1766م ، قرر تأديب باي تونس علي باشا بعدما تراجع وتماطل في دفع الضرائب الملزم بها بموجب اتفاقية سمنجة1735

إضافة الى تجاوز باي تونس في فرض ضرائب إضافية على قبيلة الحنانشة ، وبايعاز من داي الجزائر كلف حاكم قسنطينة الباي حسان(زرق العين) 1755م بالقبض على التجار التونسيين وتجريدهم من بضائعهم واموالهم . هذا الفعل والتصرف اعتبر سببا كافيا في تجدد الحرب بين الايالتين حيث بادر الجيش الجزائري بالهجوم وتجاوز الحدود التونسية وفرض حصار على منطقة الكاف 22جوان1756م وكان ضمن الحملة علي بن حسين(من اولاد حسين بن علي المقتول عام1740) . تمكنت القوات الجزائرية من دخول مدينة تونس والقاء القبض على الباي علي باشا وابنائه 31اوت 1756م واعدموا جميعا ،وعاث الجند فسادا ونهبا في المدينة ، فقال ابن ابي الضياف في ذلك:" لم ينج من النهب لا من ستره الله وقليل ماهم" ، وقد حد سوء تفاهم في قضية اقتسام الغنائم .

وبعودة السلطة من جديد للاسرة الحسينية ممثلة في محمد بن حسين انسحبت القوات الجزائرية بعدما اتفق مع باي قسنطينة على دفع مبالغ مالية للجزائر وبدفع ضريبة سنوية متمثلة في:

- براميل من الزيت لانارة الثكنات العسكرية .
- ألبسة من نوع البرانس الجيدة وكميات كبيرة من الصوف.
- قارورات من عطر الورد خاصة بالداي وكبار ضباط الانكشارية
- قطع حرير مطرزة بالذهب الخالص.
- يدفع الى باي قسنطينة 30ألف ريال سنويا.
- تحطيم الحصون العسكرية المقامة في منطقة الكاف الحدودية.

بقي محمد باي في الحكم من 1756 مدة تقارب ثلاثة سنوات الى ان خلفه اخوه علي باشا (1756–1782) حافظ هذا الاخير على حسن العلاقة مع حكام الجزائر والتزم بشروط اتفاقية 1756 (الولاء التام لحكم الجزائر) هذا الوضع اسهم في تحسن وازدهار الحياة الاقتصادية في تونس .